رؤى

توظيف السينما في التعليم

خالد طعمة

عندما نخوض في عباب البلاغة، نجد روادها يغرفون من حياضها، ما يجعل من نظمهم، صوراً تسلب الأفئدة قبل العقول. ونلحظ أن هذه الصور تتوزع بين التجسيد والتشخيص، فإذا كان الشعراء قديماً يتربعون على مراتب الشهرة، نجد أن القصة صارت تنسج عقدها وتأسر المتشوقين وأبصارهم شاخصة نحو لحظة التنوير، حيث تنشب الأفكار كحرب ضروس يظل فيها الخيال سيد الموقف، ويظل الكاتب متنقلاً بين وصف المكان وملامح الشخصية وانفعالاتها، ولعل الكاتب قبل القارئ يبحث عن البديل للحد من ذلك التفصيل، ولعل المعلم الذي يقضي جُلّ موقفه التعليمي بين وصف وتحليل للزمان والمكان، يسعى إلى التغيير.

أستطيع القول من خلال تجربتي بعد حضور دورة السينما التي نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وتمثلت في تحليل طرق عمل السينما وأساسياتها وتطورها، بعد عرض مجموعة من الأفلام، وبخاصة السينما الفلسطينية، أن عرض الفيلم السينمائي يترك أثراً كبيراً لدى الطالب، فهو يمثل التجسيد والتشخيص بأروع صوره، ويريح العقل من عناء التخيل، ويجعله مشغولاً بالمعنى المقصود والهدف المطلوب، فرب صورة أو مشهد يغني عن فيض من الكلمات.

فور عودتنا إلى المدرسة، قمت بالتنسيق مع معلم مبحث التاريخ، من أجل عرض فيلم الزمن الباقي للمخرج إيليا سليمان، بعد أن حدثته عن أهميته التاريخية، وبخاصة أنه يلخص لمرحلة من قضيتنا لاقت كل سبل التشويه. أعجب الأستاذ بالفكرة، وحددنا حصة للصف الحادي عشر، فالمنهاج يتلاءم مع موضوع الفيلم، فيتحدث عن زمن النكبة، وما تلاها من أحداث، وصولاً إلى زمننا الحاضر، وكان هناك حظ كبير لمشاهد الانتفاضة الأخيرة في إحدى المدن الفلسطينية، وعلق في الأذهان في نهاية الفيلم قفزة المخرج الشهيرة من فوق الجدار العنصري بالعصا الرياضية، التي تذكرنا بقفزة فليكس، وربما سجلت قفزته رقماً قياسياً فاق منافسيه، فالأمتار الجاثمة على قلب مدننا وقرانا وتفصلنا عن الأهل والأحباب كفيلة أن تروي الحكاية.

قبل عرض الحصة، جهزت القاعة الخاصة للعرض، تأكدت من ملاءمة الصوت وتوزيع مقاعد الطلاب ... لم أكتف بما حضرته لنقاش الفيلم مسبقاً، لأن كل لحظة من زمن الفيلم تحمل معاني جمة. أخذت أقلب المشاهد وينتابني شعور بالرضا، يصارعه إحساس آخر بأن الطلاب سينظرون لقشور الأمور دون التركيز على الهدف المطلوب.

تكللت بداية العرض بالغموض؛ كون الفيلم يستعرض تاريخ القضية، لكن المخرج فضّل أن يبدأ بمشهد من النهاية محاكاةً للنظريات الحديثة في الإخراج. ساد جو من الصمت والهدوء بعد أن ظهر منظر القهوة وروادها، وذلك الجندي العراقي الذي ضلّ طريقه، حيث جسد بكل معنى الكلمة حال الهزيمة للجيوش العربية. لم يكن الطالب باسل ليؤجل سؤاله عن الجندي، ما جعل الأستاذ يعيد شريط الذاكرة لما تعلموه في المنهاج عن المؤامرات التي حيكت كي تميت تحركات الجيوش العربية لنصرة فلسطين بعد النكسة أو حرب العام (1967)، لتميتها في قماط مهادها، وقد اختار المخرج الجندي العراقي كونهم أكثر المتقدمين. كانت بعض الأسئلة تمر سريعاً مع إجابة قصيرة، فقد سألوا عن المقاومة التي لم يكن بمقدورها الصمود أمام القدرة العسكرية للعدو، ما حدا بالأغلبية إلى ترك بيوتهم والهجرة، وأغضبتهم مشاهد التعذيب والقتل لمن آثر الصمود على أرضه ... شعروا بالحنين لتراث الآباء والأجداد الذي شرع العدو بسرقته من المنازل الفارغة من ساكنيها على أمل العودة. تنهد إسلام وهو يرى الجنود يخرجون غرضاً تلو الآخر، ما مثل سرقة لتراث الشعب الفلسطيني ... لم يرق لعمران موقف سكان الداخل المحتل بعد ترك المقاومة واستبدال البندقية بالصنارة والاندماج الذي بدأت خيوطه تنسج حتى قال: "صارت حياتهم مملة". استمرت المداخلات العاجلة حتى لاقت أوجها حول شخصية العجوز الذي عكست صورة الرفض النابع من العجز عن تغيير الواقع الأليم سوى من تلك الآمال التي تعلقت (كتعلق الغريق بقشة) بالقائد جمال عبد الناصر، ما تلاشت مبكراً بعد الإعلان عن موته عبر الشاشة الصغيرة التي سجلت بالصوت والصورة بلونيها الأسود والأبيض لترتسم في مخيلة الطلبة، خلافاً لما يتعلمونه بالأسلوب التقليدي.

تجولت بالنظرات بين مشاهد الفيلم وبين عشرات العيون المفتحة كصفحات كتاب تَقرأ بداخله ما يدور بخلدهم وما تختزن ذاكرتهم من معلومات، تم تكدسها عبر طيات من الغموض حتى جاءت تلك الصور للأغراض التي اختارها المخرج بدقة عالية، مطابقة للواقع المصور. جاءت لتفك، بسلاسة، العقد المكدسة، حيث يتسنى للطالب أن يحلق بفكره عبر الزمن الماضي.

تضاربت آراء الطلاب حول مساعدة والد إيليا سليمان للجندي الإسرائيلي الجريح، ولعل لسان حال الجندي يقول: كيف يساعدني وأنا ..... ؟ كانت عينا مصطفى كزملائه تتطاير غضباً من مشاهدة جار إيليا الفلسطيني الذي تجند مع الشرطة الإسرائيلية، فقد تم الحوار حول الأسباب التي تدعو

من ورشة عمل ضمن مسار السينما في التعليم.

العربي للتجنيد، وربما كانت أحداث يوم الأرض عاملاً لشحذ الهمم وكسر الصمت المخيم على قلوب الكثيرين الذين آثروا السكوت حفاظاً على سلامتهم، لكن صمت إيليا سليمان لم يُكسر، فقد سأل الطلاب متى سينطق؟ وقد تناغمت مداخلات الطلاب وإجابات المعلم مع المواقف التاريخية وتطورات القضية الفلسطينية التي تم عرضها.

كانت قصة غسان كنفاني "كعك على الرصيف" تلخص جانباً من معاناة اللاجئين الفلسطينيين في الشتات، فقد كان لنقاش القصة في اليوم التالي لاستلامها مع مجموعة من طالبات المرحلة الأساسية العليا، أثره البينّ، وذلك لعلمهن المسبق أن القصة ستتم مشاهدتها على شكل فيلم سينمائي، ما جعل قراءتها بتعمق والوقوف على كل جزئية، وهذا ما حدث معنا عندما قرأنا القصة قبل أن نشاهد الفيلم في اليوم الثالث لدورة السينما ... وقد طاب جني الثمار بعد أن أينعت ونضجت، فبعد مناقشة القصة والوقوف على بعض الجوانب، زاد تشوق الطالبات لحضور الفيلم، و لم تمضِ بضع دقائق من العرض حتى بدت على الوجوه ملامح تظهر مدى التفاعل مع الأحداث، وإذا خالف المخرج لجزيئية من النص وجدت التساؤلات تنهال من كل حدب وصوب، ما جعلنا نتوقف قليلاً ونُدير نقاشاً مصغراً قبل استئناف العرض.

ودار نقاش موسع بعد النهاية، فقد فتحت أفقاً متسعاً، ويمكن تخصيص حصص عدة لكل جانب حتى تفي بالغرض ... بدءاً بقضية اللاجئين في سوريا، وما تتعرض له المخيمات من قصف ودمار في هذه الأيام ... انتقالاً إلى الجوانب الأدبية والبلاغية، والحديث عن استخدام العامية في الحوار بدل الفصيحة في النص، ومدى خطورة انتشار العامية ... كما يعطي مجالاً للنقد التعليمي المنبثق من المقارنة بين المكتوب والمرئي، فهل كانت شخصية الطفل ملائمة لما في النص؟ أين أخفق؟ وأين أبدع؟ لماذا غيرّ في ديكور غرفة المعلمين؟ لِمَ استبدل التدفئة من الحطب إلى الغاز؟ هل كانت الأمور عفوية أم تَعمّد المخرج التغيير؟ وما السبب في ذلك؟ كيف تمكن من توظيف المونولوج الداخلي (حديث النفس للنفس).

هذه القضايا وغيرها يمكن مناقشتها والاستطراد فيها ما، يولّد لدى الطالب الحس النقدي الذي يعود بالفائدة ويساعد على تثبيت المعلومة.

كما نلاحظ أن فيلماً واحداً يمكن أن يكون مسانداً لأكثر من مبحث، وليس من الضروري مشاهدة جميع الفيلم، بل يختار المعلم المقطع الملائم للمادة التعليمية التي يرغب في عرضها، فالأعمال السينمائية كثيرة ومنوعة، وتعالج معظم الجوانب الثقافية والعلمية والتاريخية والاجتماعية، لكن يتطلب من المعلم التحضير المسبق للمقاطع المناسبة، وحبذا لو تم التنسيق بين العاملين في مركز المناهج والمختصين في السينما من أجل القيام بأعمال تساند المناهج، أو العمل على تحديد الأفلام والمقاطع المناسبة.

معلم في مدرسة ذكور بيت عنان الثانوية

من ورشة عمل ضمن مسار السينما في التعليم.